هل من احوال تحسن فيها الحرب (١)

اني من انصار السلم ومبغضي الحرب لان الحرب آفة لما ارغب فيه من الترقي الاجتماعي وانتظام الاحكام وتصافي الناس وتقرّبهم بعضهم من بعض وازدهار الصنائع والعلوم فضلاً عن كون الحرب وحشية والانسان في غنى عنها . ولكني اعتقد مع ذلك ان الانكليز كانوا على حق في اعلانهم الحرب على المانيا وانهم لو بقوا على الحياد في هذه الازمة لكان ذلك تقصيراً منهم في ما يجب عليهم للانسانية عموماً دخلت فرنسا وروسيا والبلجيك والصرب في الحرب اضطراراً لا اختياراً اما نحن الانكليز فاقبلنا عليها مختارين بعد امعان النظر واعمال الروية واظهار المانيا ميلها الى موادعتنا ومع ذلك اعتقدُ اننا على حق في عملنا هذا

كيفما قلّبت نظرك في المسألة رأيت اننا على حق وان المانيا على باطل . وهذه صور المخابرات الرسمية التي نشرتها الحكومة البريطانية والحكومة الالمانية والحكومة الروسية شاهدة بذلك ولا يسع المطلع عليها الاّ ان يرى ان المانيا — او حزباً من الاحزاب فيها — دبّرت اسباب هذه الحرب وانها اختارت لها الوقت الذي ظنت ان الحرب فيه تشقُّ على جاراتها وانها منعت النمسا من تسوية اخلاف بينها وبين الصرب وانها خرقت عهدها للبلجيك لكي لا تتأخر في زحفها على فرنسا . وقد كثرت الادلة على ما ارتكبتهُ من الفظائع وانواع القسوة في بلاد البلجيك مما لم يسمع بمثله في حروب الامم المتمدنة . ولكن يحتج البعض بقولهم « ان اساءة المانيا التصرف لا تبرر الانكليز في اساءتهم التصرف اقتداء بها . وان الانكليز احسنوا في سعيهم الى منع الحرب فوقعت الحرب رغماً عنهم واشتبكت فيها خمس امم ولكنهم لم يحسنوا في دخولهم الحرب وتوسيعهم نطاقها . وما الذي منعهم من ان يقفوا على الحياد كما وقفت الولايات المتحدة فيوفّروا الجرحى ويخففوا ويلات المنكوبين ويتربصوا الفرص لانهاء الحرب وكف شرها »

ورب محتج على السياسة البريطانية بقول « مثل لنفسك ويلات الحرب وما يقاسيه فيها الانسان والحيوان من آلام الجراح ومضض الموت وذلك لغير ذنب . لعلك رأيت انساناً وقعت به عاهة شديدة او فرساً كسر ظهرهُ ولا تزال تتذكر آلامها ولكن كم في اطراف كل معركة من رجل جريح وفرس صريع يتوقعان الموت ليخلصهما من آلامهما . ما اكثر الجرحى وما اشد آلامهم حيث لا ترى عين . وهب انك مصيب في غيظك من المانيا

(١) من رسالة للعلامة غلبرت مري استاذ اليونانية في جامعة اكسفرد

فما ذنب هؤلاء فان الخيل حيوانات عجماء سارت حيث سار بها الجنود والجنود فلاحون وعملة وباعة ومعلمون . فان كنتم تنكرون على المانيا بعض ما اتت من الامور فما الذي تنكرونهُ على هؤلاء واذا سلمنا ان بعض من في ايديهم ازمة الامور في المانيا اساء التصرف فهؤلاء لم يأتوا امراً منكراً . رأيتموهم مشتبكين في حرب يقاسون ويلاتها فاطلتم ايضاً الحرب عليهم وزدتموهم ويلاً . وان قلتم انكم تريدون مجازاة مسببي الحرب وان هؤلاء الابرياء يحولون دونهم قلنا انكم لتتلون الوف الابرياء الآن وذلك ليس من العدل في شيء . ثم اذا تمَّ لكم الظفر في النهاية جئتم ببعض ذوي المقامات من البروسيين فما كنتموهم كما يشاء هواكم فحكمتم انهم مسببو الحرب و يستحقون العقاب وعند ذلك لا تدرون ما تفعلون بهم تحاولون ان تلبسوهم الذل والعار فتكون النتيجة انكم ترفعونهم الى مصاف الابطال في عيون امتهم

"هذا على فرض ان الحرب بين فريقين احدهما محق والآخر مبطل وان النصر سيكون للمحق . ولكن لنفرض ان الفريقين مخطئان او ان المخطئ يغلب المحق لانهُ استعد للحرب واعدَّ لها عدتها فتكون نتيجة الحرب واهراق دم الانسان والحيوان وتضييع الاموال وشقاء النساء والاطفال اعلاء الباطل دون اقامة الحق . قد يغتفر الشر القليل اذا تُوقع وراءهُ خير كثير ولكن اتيان الشر غير المتناهي كشر الحرب طمعاً بخير لا يعتقدهُ جانب كبير من المتحاربين الذين يؤمل لهم بل يعتقدهُ نصفهم ولا يعتقدهُ النصف الآخر عمل غير حميد لا ينطبق على العقل ولا على الآداب بل هو من الجنون عند كل من لم يلبس عليهِ الهوى"

لا انكر شيئاً من هذا الكلام ولكني ارى انهُ غلط لانهُ ينظر فيهِ الى الحرب نظر الموازنة بين الربح والخسارة في النتائج المادية القريبة فقط ولا ينظر فيهِ الى الاحوال التي تفضل فيها الحرب والموت على الاستسلام والى ان الاستسسال في المقاومة في بعض الاحوال هو الظفر بعينهِ . مثال ذلك اعتراض اليونان لجيوش الفرس في مضيق ثرموبيلي فانهم لم يخامرهم شك في انهم كانوا يقومون بما يجب ان يقوموا بهِ مجاربتهم الفرس واستسسالهم في قتالهم وقد وافقهم المخلف على ذلك . ومن المرجح انهم عرفوا انهم مقهورون مائتون لا محالة وان الفرس لا يلبثون ان يجتاحوا بلادهم و يعاملوها بالقسوة لوقوفها في وجههم ولكن معرفتهم هذه لم تمل بهم الى التسامح بالحط من كرامة وطنهم

ومن ذلك ايضاً ان جماعة من قطاع الطرق في بلاد المغرب قبضوا على سائح افرنسي دهري معروف ببغضهِ للاكليروس فخيَّروهُ بين دوس الصليب والموت فابى ان يدوس الصليب لا تكريماً لهُ ولكن كرهاً منهُ للاستسلام الى مشيئة قطاع الطرق فقتل

فالاباء وعزة النفس متمكنان في غريزة الانسان وقد رأيت الاميركيين يفاخرون بان في عروقهم شيئاً من دم هنود اميركا رغماً عن كرههم للتزاوج مع غيرهم من عامة الناس ولو كانوا من الاوربيين وسبب ذلك ما عرف عن هنود اميركا انهم يفضلون الموت على الرق والاستعباد

يخبط الكتاب واخطباء كثيراً في حقيقة الشرف والذل وهما امران امامهما الشعور ولا دخل للعقل فيهما وكثيراً ما يقاس الشرف بامور غير مهمة او غير صحيحة . ولست محاولاً تعريفهُ وتعريف الذل ولكني اقول انهما امران حقيقيان يشبهان الدين في انهما لا يباعان ولا يشريان . والذي يهمنا في هذا المقام هو ان الشرف والذل موجودان فعلاً ويمكننا القول ان الشرف هو ما يؤثرهُ الحر على حياتهِ ويتفر من تدنيسهِ اكثر مما ينفر من الالم والموت . والذل هو ما يُبتعد عنهُ اكثر مما يُبتعد عن الموت والعذاب

ومن الناس من يتابع تولستوي فيعتقد مثلهُ انهُ يجمل بالانسان ان يموت دون انتقاص شرفهِ ولكنهُ لا يجمل بهِ ان يقتل غيرهُ لاجل ذلك فالتعرض للقتل محمود عندهم ولكن مقابلة القوة بالقوة ذنب لا يغتفر

خرجت مرة صحبة واحد من مريدي تولستوي فاذا نحن بصبيَّة صغيرة فقلت لهُ لو اقبل على هذه الصبية سكران او مجنون او خبيث مفطور على الشر واخذ يضربها الا تمنعهُ من ذلك وتقوي عليهِ بعصاك اذا لزم الامر؟ فقال « معاذ الله ان آتي منكراً بل احاول ان احولهُ عن عزمهِ واعترض بينهُ وبين الصبية واعرّض نفسي للموت ولكني لا اضربهُ » . ومن الناس ايضاً من يقول « ليقتل هذا الرجل الشرير الصبية او ليحملها حيث شاء فما هو الاَّ شرير يزيد شروره اما انا فلا ارتكب منكراً ولا ازيد الافعال المنكرة » وامثال هذا لا يبلغون واحداً في الالف و يصعب اقناعهم بالاقلاع عن مبدإهم

كل انسان سليم المدارك يرى ان مشاهدة المنكر يؤذي من غير ان يحاول منعهُ حال كونهِ قادراً على ذلك اثم شائن . وتزيد مسؤولية المرء في منع المنكر على قدر ما هو اقوى من الذي يأتي المنكر . فاذا رأيت قطاع الطرق اقوى منك فعند ذلك يجوز لك ان تستسلم على ان الاستسلام يجب ان لا يلجأ اليهِ الاَّ عند قطع الامل من كل وسيلة اخرى . فافضل ما نقوم بهِ اذا رأيت احداً همَّ بمنكر هو ان تُرهبهُ فاذا لم يمتنع فقاومهُ بما اوتيت من قوة الى ان تقهرهُ فاذا لم تقوَ عليهِ فلا تضن بنفسك في مقاومتهِ ومنعهِ . واحط ما تعملهُ في مثل هذه الاحوال هو ان تتركهُ يأتي ما همَّ بهِ من غير ان تتصدى لهُ . واما اقناع الشرير بالاقلاع عن اتيان الشرور فما يرجا لمرجى)

قبل ان تقدم على امر من الامور العادية تنظر في عواقبه وتقابل بين الربح والخسارة اللذين تتوقع ان يتجهما لك . اما في الامور التي تمس الدين او الشرف فلا تلتفت الى الربح والخسارة ولا تقابل مثل هذه المقابلة . فلو قلت لمسيحي قدّم للاستشهاد الديني ما يضرّك لو احرقت البخور امام الوثن فليس في اصحابك من يشك في دينك ولا من يضل بسببك وليس احراقك البخور ينافع الوثن ولا يضائر الله فلماذا تجر البلاء عليك وعلى اهلك؟ او لو قلت للدهري الفرنسوي ما يمنعك من ان تهين الصليب فهو شعار الاكليروس الذين تكرههم وليست اهانتك لهُ بضائرة احدًا واذا اهنتهُ ابقيت على نفسك ونفعت اهلك . او لو قلت للهندي الاميركي وقد وقع بين عشرة من البيض يا هذا لا طاقة لك بمقاومتهم فاستسلم اليهم والن جانبك لهم وخفّ في خدمتهم لعلهم ينصفونك ويعاملونك بالحنان . فاذا فعلت ذلك وتحققت انهم لا ينصفونك فقاتلهم الى ان تتخلص منهم او تموت اما الآن فليس من الرأي ان تستقتل

اذا قلت لهؤلاء مثل هذه الاقوال انفوا من الرد عليك سواء كان عندهم من الحجج ما يحتجون به قولك او لم يكن . فان الدين والشرف فوق كل اعتبار مادي . فاذا أُكره المرء على فعل ما فيه حطة في شرفه قال « لا افعلهُ ولو كان في ذلك موتي »

ويقع للامم مواقف لا بد فيها من الاختيار بين الرضا بانتقاص الشرف وبين الخسارة المادية كما يقع لافراد الناس الاّ ان خسارة الامم تكون اكبر وانتقاص شرفها لا يظهر جليًّا للعيان كما يظهر انتقاص شرف الافراد . وعلى العموم اذا اعتمدت امة على القوة والخداع في معاملتها لامة اخرى كانت الامة الثانية في موقف من هذه المواقف

ومن ذلك ما وقع للصرب . قالت لها النمسا انك مملكة حقيرة وقد ضممتُ اليّ ملايين من ابناء جنسك وحكمتهم رغمًا عنهم ولكن لا تزال فيك نخوة ضدي ولست بصايرة عليها فعليك ان تصرفي كل رجالك وجنودك الذين لا يحبونني . ولا بد لي من ان ابعث اليك من وقت الى آخر باسماء الرجال الذي يجب عليك ان تطردهم او تقتلهم واذا لم تجيبني الى ذلك في ٤٨ ساعة اضطررتك الى الاجابة عليه لاني اقوى منك جدًّا . ومعلوم ان الصرب بذلت جهدها في ارضاء النمسا فاجابتها الى ثلثي المطالب وطلبت التحكيم في الثلث الباقي ولو اجابتها اليها جميعها لكان ذلك حطةً في شرفها وتضحية لحريتها ولأحسّ كل صربي في نفسه انهُ هان وذل . ولا يعتدُّ في هذا المقام بما كان يمكن للصرب ان تنالهُ من الغنى وانتظام الامور تحت سيطرة النمسا لان الصرب تكون قد اشترت هذا الغنى والانتظام بقبولها الرق . والحرُّ لا يقبل الرق مهما بُذل لهُ في مقابل ذلك

ومثل ذلك وقع للبلجيك ايضاً حين جاءتها المانيا تقول « لا انقم عليك شيئاً ولكن لديَّ ما يدعوني الى المرور في بلادك وقد اضطر الى القتال فيها . ولم يفتني انك قطعت من العهود ما يمنعك من السماح لجيوش اي دولة من الدول ان تمر في بلادك فان سمحت لي بالمرور كافأتك وان ابيت فضعت عليك عيشك » . ولو اجابت البلجيك المانيا الى طلبها لخرجت من مصاف الامم الحرة المستقلة . ومن المحتمل انها لو فعلت ذلك ثم قيض الظفر للالمان لم تخسر خسارة مادية ولكنها تكون قد اطاعت من لا طاعة له عليها لكونه اقوى منها . غير انها رفضت الطاعة فكانت نتيجة ذلك تخريب مدنها وقتل الالوف من جنودها ونزول الويلات باهلها شيوخاً ونساء واولاداً ولكن بقيت فاحرزتها ولم يدنس شرفها

والقائل برأي تولستوي يحتج قائلاً « تتكلمون على شرف البلجيك وشرف الصرب ولكن ما هي البلجيك وما هي الصرب ؟ هما مجموعان من الناس اكثرهم بريء لم تكن له يد فيما تحارب الدول من اجله وفي كلا المجموعين الابي الشريف وغير الشريف وشرف كل يتوقف على صدقه وقيامه بما عليه للغير لا على مرور الاجانب في بلاده وتعرضهم لشؤون حكومته . لو سمحت البلجيك للالمان ان يجتازوا بلادها لشعر الملك البرت ووزراؤه ان شرفهم انتقص اما عامة البلجيكيين من الفلاحين والصناع والباعة فلا يشعرون بشيء من ذلك بل كانوا خرجوا يبتاعون انظارهم برؤية الالمان في مرورهم بقاطعات الفيزه وياج ولوقان وتجروا معهم تجارة رابحة . وليس من احد ينكر انهُ لو فعل البلجيكيون ذلك لكفروا الويلات التي جرتها عليهم حكومتهم لكي تفخر بابائها

لا ارد على هذا المحتج بان سماح البلجيك للالمان باجتياز بلادها لا يكفيها شر الحرب اذ لو فعلت ذلك لعدتهُ فرنسا اعلاناً للحرب عليها وهاجمت البلجيك ولكني اقتصر في ذلك على النظر في المسألة من جهة الشرف وعندي ان هذا المحتج في ضلال مبين من هذا القبيل لان المسألة تمس حقيقة التمدن ومقام الانسان في الهيئة الاجتماعية

ان القول بان عامة الناس في البلدان الراقية لا يبالون بشرف بلادهم خطأ . نعم قد يجهل العامة ما تجريهِ الحكومة ولكنهم اذا عرفوهُ اهتموا لهُ كثيراً . فاذا فرضنا ان ملك الانكليز او رئيس الولايات المتحدة قبل الرشوة من دولة اجنبية وعرف ذلك عامة الانكليز والاميركان فهل يسكتون عن ذلك ويقول كل منهم قد فعل الملك ما فيهِ حطة بشرفهِ وذلك شأنهُ اما انا فلا ناقة لي في الامر ولا جمل ؟ كلا ان ذلك من المستحيل بل ان كل الكليزي واميركي يشعر ان ما يمس شرف وطنهِ يمس شرفهُ . واذا كان العامة لا يهتمون

بامور الحكومة وشرفها كانت الدولة مخلة معتلة لا تلبث ان تزول . وقد برهنت البلجيك على انها ليست كذلك

لئن الآن الى بريطانيا العظمى فقد وقع لها الآن ما تنطبق عليه هذه الاحكام فان البلجيك مملكة صغيرة بين دولتين من اقوى الدول لا تأمن هجوم احداهما عليها واساءتها اليها اذا لم تضمن الدول الكبرى سلامتها . قطعت بريطانيا العهود على نفسها ان تحافظ على حياد البلجيك واتفقت على ذلك في بروسيا وروسيا وفرنسا وتعاهدت هذه الدول على ان تضمن سلامة البلجيك وتمنع اجتياحها وسلخ اي قسم من اقسامها . وتعهدت البلجيك ان تحافظ على شروط الحياد ولا تنحاز الى دولة في حربها مع دولة اخرى

وفي اواخر يوليو من السنة الماضية حدث ما اوجب علينا اداء ما التزمنا به اذ اجتاح الالمان بلاد البلجيك فهبت البلجيك سيفي وجههم تدافع عن نفسها منفردة وابلى جنودها بلاء حسناً بجيوش تفوقهم عدةً وعدداً بعد ان استغاثت ببريطانيا وفرنسا لتنصراها وتقوما بعهودهما لها . ولم تجن البلجيك على المانيا جناية تستحق حنق الالمان عليها وقد اقر وزير الامبراطورية الالمانية في خطبة القاها في ٦ اغسطس ان ليس لالمانيا عذر في خرقها لحياد البلجيك سوى الضرورة . وخاطبت المانيا بريطانيا العظمى قائلة « لا انكر انك امضيت عهداً باحترام حياد البلجيك ولكن ما اهمية هذا العهد وقد امضيتهُ انا مثلك وها قد خرقتهُ وصارت البلجيك في قبضتي . لو كانت البلجيك اجابتني الى طلبي لاحسنت اليها واما الآن فلن ارحمها . فان رضيت بما فعلت وأخلدت الى السكينة فسوف اتفضل عليك بشيء من الغنيمة اما اذا ابيت الاَّ الاعتراض لي كانت عاقبة امرك وخيمة . وظننا بك انك لا تعملين عمل الجانين وتخاطرين بملكك العظيم من اجل ورقة » . فكان جواب بريطانيا لها ان اخرجي من البلجيك قبل مضي اثنتي عشرة ساعة والاَّ حاربتك

وقد احسنت بريطانيا في هذا الجواب . وهي لم تعجل به لانها ما فتئت منذ قام الخلاف بين النمسا والصرب تسعى جهدها لمنع الحرب واعلمت المانيا بما يكون موقفها فيها اذا نشبت ولم ترسل بلاغها النهائي لالمانيا الاَّ بعد اجتياح البلجيك اي بعد ان وقعت الحالة المنظور اليها في معاهدتنا للبلجيك . ثم نهضت بريطانيا لحماية شعب تعهدت بحمايته وكان نهوضها طبقاً لرغائب الشعب البريطاني بوجهٍ الاجمال

ثم انكلم على المسألة الاَّ من جهة الشرف على ان للمسائل السياسية وجوهاً كثيرة متشعبة يصعب تخليصها بعضها من بعض . فبريطانيا كان لديها اسباب اخرى تحملها على الاشتراك

في الحرب ولا ينكر ان لدخولها في الحرب عواقب وخيمة ولكن لبقائها على الحياد لو انها بقيت عواقب اوخم ولكنها على كل حال لم تدخل تجرّ منها مغنماً ومعاذ الله ان يكون هذا غرضها

فالمسألة التي عرضت لنا لم تكن مسألة معاهدة فقط بل لها وجوه اخرى متداخلة فهي سياسية وطنية تمس مصالحنا ومستقبلنا وتمس ما يجب علينا نحو الانسانية جمعاء

ان حال المانيا اشكل على اوربا منذ سنين . نجحت نجاحاً باهراً بعد قهرها لفرنسا سنة ١٨٧٠ فكان نجاحها اسكرها . هذا موضوع صعب يحتاج البحث فيه الى معارف اوسع من معارفي فاقتصر على التعبير عمّا قام في نفسي بعد المطالعة والملاحظة . من اعتقد اعتقاداً صحيحاً ان على الدول الكبيرة بعضها نحو بعض ما على ذوي الشرف من افراد الناس لا يبرئ دولة اوربية ولا غيرها لان لكل من الدول الاوربية اغراضاً ومطامع وكلٌّ منها تتقدم الجواسيس في اغراضها وتحاول غبن غيرها وتلجأ الى التهديد والوعيد اذا لم تقدر ان تقنع خصمها بان الحق في جانبها ولكن المانيا قد فاقتهن في ذلك بمراحل . اذا وقع خلاف بينها وبين غيرها بادرت الى التهديد وقلما تحتج بالعدل وحقوق الامم في مخابراتها السياسية . تتفق على جواسيسها المبالغ الطائلة حتى صار جواسيس الالمان مضرباً للمثل . تفوق كل الدول في الغدر والخداع ويتكلم امبراطورها ووزراؤه عن مطامعها باقوال لا يجسر ان يقول مثلها في انكلترا وفرنسا الاّ الصحافيون غير المسؤولين عما يكتبون الذين لا يعلق الناس اهمية على كتاباتهم . فيبحثون مثلاً في هل حان لهم ان يقهروا فرنسا ثانيةً وفي ما هي افضل طريقة لضرب فرنسا ضربة لا قيام لها بعدها . يقولون ان بسمارك ومعاصريه جعلوا المانيا اقوى دولة في البر واعلوا كلمتها بين الدول وعلى الامبراطور الحالي ان يعلي كلمتها في جميع المعمور . وقد قال امبراطورها « ان مستقبلنا كامبراطورية مسكونية على البحر » ويتناقش ذوو الشأن من الالمان في هل يستطيعون بناء اسطول في وسعه التغلب على الاسطول الانكليزي ولا يخول الانكليز دون بنائه ويتحادثون في مجالسهم العمومية عن المستعمرات الانكليزية التي يجوز ابقاؤها في يد الانكليز بعد « اليوم الموعود » ويأسفون بل يتعجبون من انانية الانكليز في محاولتهم احباط مساعيهم ويصرّحون باملهم ان ضعف انكلترا وجبنها المشهورين يعجزانها عن المقاومة . ولما رأى امبراطورهم ان في الامبراطورية البريطانية كثيرين من المسلمين رخيل له انهُ يمكن تهييجهم اعلن انهُ صديق المسلمين اينما احتاجوا اليهِ وذلك سنة ١٨٩٨ حينما كان السلم مخيّماً على المسكونة . وكان اساتذتهم يخطبون في المدارس في ما هي

الحرب السبل لحق الامبراطورية البريطانية وقلما خلت مأدبة من مآدب ضباطهم البحريين من شرب نخب « ذلك اليوم » اي يوم الاشتباك مع الانكليز

وما يقضي بالعجب هو انهم فصّلوا هذه المطامح والمقاصد في خطبهم وكتبهم التي لم يلتفتوا فيها الى العدل العام والامانة المتفق عليها وخطبهم وكتبهم هذه ليس فيها شيء من الحزم السياسي فكأنهم يفصحون فيها عن حيل السارق الحاذق بلسان الطفل السليم القلب

هكذا كانت المانيا تدبر المكايد لجاراتها وتعلمهم بانها تدبرها ثم تشكو منهم لانهم لا يصادقونها ولم يخلُوا بالآداب في معاملتها . وقد قال مستشار الامبراطورية فون بولوف في كتابه انهُ لم يطمئن الاّ في وقت واحد يريد سنة ١٩٠٩ حين اغتصبت النمسا طيفة المانيا ولا يتبين مقلبتين هما البوسنه والهرسك غير مراعية في عملها هذا عهداً ولا ذمة . وغضبت اوربا لعمل النمسا خصوصاً روسيا حامية الصقالبة وبريطانيا نصيرة الشعوب الصغيرة لكن المانيا ظاهرت النمسا ووقف امبراطور المانيا وراءها يسلاحه البرّاق فلم تجاسر سائر الدول على التصدي لها

ولنذكر هنا ان المانيا كانت البادئة بالمباراة في السلح والاستعداد الحربي فاضطرت سائر الدول ان تباريها في ذلك . فقد اقترحت روسيا مراراً ان يوضع حد للتسلح واقترحت بريطانيا غير مرة ان يوضع حد لبناء الاساطيل فلم تعبأ المانيا باقتراحاتهما

كنا نرى بوادر الشر من الالمان فنقلل من اهميتها ولا نعتد بها . ففي كل بلاد حتى في انكلترا نفسها قوم يحثون على الحرب . نعم ان صوت دعاة الحرب في المانيا كان ارفع من صوت امثالهم في البلدان الاخرى ولكننا لم نكن نحسب انهم يحملون بلادهم على خوض غمارها . اما امبراطور المانيا فكثير التسرّع ولكن اقوال الود التي كان يوجهها الينا اكثر من اقوال الجفاء . ومع ذلك تذرعنا بالتؤدة والاناة فكنا نسكت عن تحرشه بنا ونتخذ ازدياد وسيلة لتقوية الاحزاب الحرة الممثلة في المانيا وما زلنا على هذه السياسة مع المانيا الى شهر يوليو الماضي حين برح الخفاء وظهرت الامور المفصلة في الكتب الانكليزية البيضاء

اتضح لنا في يوليو ان المانيا والنمسا او بعض الاحزاب فيها دبرتا اسباب ضربة تشبهُ الضربة التي ضربتاها سنة ١٩٠٩ : الاّ انها اعظم منها واشد تعدياً حتى ان حليفتها ايطالية ابت مشاركتها قائلةً انها حالفتها على الدفاع لا على التعدي . واختارت المانيا والنمسا للحرب وقتاً خيّل لها فيه ان انكلترا على شفا حرب اهلية في ايرلندة وان الثورة التي

حدثت في الهند ذهبت بشيء من نومتها واطمعها ما اذيع عن الجيش الفرنسوي انهُ ناقص العدة حاف وما سمعناهُ عن الاغتصاب والثورة في روسيا وان تسليح الجيش الروسي بالاسلحة الحديثة لم يكن قد كمل. وتحيّنا يوماً غاب فيهِ اكثر سفراء الدول عن مراكز اعمالهم مصطافين فسفير بريطانيا في برلين وسفيرا روسيا في برلين وفينا ووزير خارجية النمسا ورئيس وزراء فرنسا ورئيس وزراء الصرب وامبراطور المانيا نفسهُ وغير هؤلاء ممن كان في طاقتهِ ان يكبح جماح الاحزاب الحربية كانوا بعيدين عن مراكز اعمالهم. تحيّنت النمسا ذلك اليوم وارسلت بلاغها النهائي الى الصرب طالبة منها الاجابة عليهِ في ٤٨ ساعة وانقضى ١٧ ساعة من الثماني والاربعين قبل ان تعرف الدول بهذا البلاغ ولم تكن النمسا اطلعتها عليهِ. ثم اعلنت الحرب على الصرب ومن سفراء الدول من لم يصلوا الى مراكز اعمالهم. فاخذ سياسيو اوربا يسعون الى تسوية الامر صلحاً وتأخير الحرب واقناع النمسا ان ترضى بفض المشكل بالتحكيم حتى اذا بلغ السيل الزبى ورجع وزير خارجية النمسا الى فينا ورضي اساساً لمفاوضة روسيا وقوي الامل بالاحتفاظ بالسلم ارسلت المانيا بلاغها النهائي الى روسيا وفرنسا ودخلت جنود النمسا اراضي الصرب ولم تمضِ ٢٤ ساعة الاَّ وست من دول اوربا في حرب بعضها مع بعض

ولم يعرف حتى الآن كيف دُبّرت هذه الامور كلها ولن يعرف ذلك الاَّ بعد خمسين سنة او نحوها. وعندي انهُ لو علمت الامة الالمانية بما كان يدبّر طي الخفاء لما سمحت بهِ ولا اظن ان امبراطور الالمان نفسهُ دبّر ذلك كلهُ

اما وزير خارجية النمسا فبعد رجوعهِ الى فينا حاول نقض ما ابرمهُ زملاؤهُ ولكن الاحزاب الحربية كانت قد دبّرت تدابيرها واستولت على ازمة الامور في النمسا والمانيا فجرّت البلادين الى الحرب

اتضح لنا كما اتضح لانجلترا ان المانيا هي التي هيأت اسباب الحرب فابصرناها اخذت بعهودها خارقة حرمة البلجيك بينما كانت حليفتها تعبث بالصرب وتذكرنا ما كانت تهددنا بهِ. وفي اثناء ذلك عرضت علينا امراً يخل بشرفنا وهو ان نغضي عن اخلالها بالعهود الى ان يحين الوقت لتفاهمنا معها فكأنها ارادت بذلك ان تثبت تهمتنا

لننظر الى المسألة نظر من عليهِ حقوق لوطنهِ ولاوربا جميعها فارضين انهُ لم تكن لنا معاهدة مع البلجيك ولا صداقة لفرنسا ونرى ما كان يجب علينا تجاه هذه الامور غير قاصرين نظرنا على المصالح المادية

عندي انهُ كان يمكننا اتيان كل امر ما عدا تنعيلنا من المسؤولية التي نشأت من عدوان المانيا لاننا دولة من اقوى الدول وارتكبت على مرأى منا وفي مرمى مدافعنا جريمة تهدد كل مخلوق في اوربا . وكان يمكن لسياسينا ان يقول ما يشاء ما عدا قولهِ « هذا الامر لا يعنينا فعلينا بشؤوننا الخاصة » . ولم يتعذر علينا ان نظل على الحياد ولكن التزام الحياد في مثل هذا الموقف ليست عواقبهُ اسلم من عواقب الاشتراك في الحرب هذا اذا اغضينا عما يوجبهُ علينا الشرف ولكن لا يظن احد انهُ يمكنهُ شهود المذابح والسكوت عنها من غير ان يكون عليهِ ذنب المشترك فيها

يتوقف الحكم في هل احسنت الحكومة الانكليزية في اعلانها الحرب من الوجهة المادية على المقابلة بين ما يرجى من وراء البقاء على الحياد وما يرجى من وراء الحرب وليس في البلاد من هو اقدر من رجال الحكومة على هذه المقابلة . ولو وكل الامر اليَّ لسعيت اولاً الى اعادة السلم حتى اذا حبطت مساعيَّ وكلتُ الامر الى المستلمين ازمة الحكومة في بلادنا لان ثقتي بهم عظيمة . ولكن المانيا لم تمهل حكومتنا لتنظر في مثل هذا الامر بل اضطرتها الى ان تعلن الحرب او تخل بالعهد . وانا اميل الى رأي من يرى ان محافظة الشعوب على العهود والحقوق ضرورية لمصالحنا وان استيلاء الالمان على اوستند وزيبروج فضلاً عن دنكرك وكاله يهدد بلادنا ولذلك فاعلاننا الحرب على المانيا هو في سبيل الدفاع عن النفس من هذا القبيل . فما دعتنا اليهِ مصالحنا في هذا الموقف هو اذن نفس ما دعانا اليهِ شرفنا

يأمل اناس ان تحسن حال اوربا بعد انقضاء الحرب ظنًّا منهم انها ستكون قد ازالت الضغائن وانها ستدبر تدابير عظيمة تحل بها كل مشكل عند نجومه بالعدل والتعاون دون المكايد والتغالب . ويجب ان يكون املنا بحصول ذلك قويًّا وان نساعد من يعمل عليهِ . ولكن ما اصعب هذا الامر اذا اتى وقتهُ ويحول دون الشروع فيهِ اهوال واخطار كثيرة . وليس لنا ان نخدر ضمائرنا بما نتوي ان نعملهُ من الامور الحميدة بعد انقضاء الحرب ولا شك في ان المانيا ايضاً عقدت النية على الاحسان الينا وترفيقنا اذا استولت علينا اما الآن فليس لنا ان ننظر الاَّ الى ما يجب علينا وما الجأتنا اليهِ الضرورة من حفظ النفس وهنا تتفق مصالحنا مع شرفنا

كان بعض فلاسفة القرن التاسع عشر يقول ان واجبات الامة في الغالب لا تنافي مصالحها . ولا شك في انهُ يمكن ايراد شواهد كثيرة تخالف هذه القاعدة ولكن الاساءة عمداً وقبح الصنيع يضران غالبًا بالامم التي تلجأ اليهما اضرارهما بافراد الناس ولهذه الحقيقة من الاهمية فوق ما يظهر عند اول وهلة

من السموم ما لا يمكن ابتلاعهُ لكراهته ومن ذلك البكوتين والحامض البيانهدريك فلا يمكن حمل انسان او كلب على شرب ملعقة من احدهما . ونفور الحيوان من هذه السموم هو من احتياطات الطبيعة لحفظ النوع . ولا يبعد ان تكون انفة الانسان من بعض الامور التي يأنف منها مع انها تكون نافعة لهُ حسب الظاهر من قبيل احتياط الطبيعة ضد السموم ايضاً .

ولما ذكرنا الامثلة التي ذكرناها اي رضى الشهيد المسيحي بالقتل وإباء الدهري الفرنسوي ان يدوس الصليب ظهر كأن الشرف والمصلحة المادية كانا متعارضين وذلك غير صحيح في المثالين وقلما يتفاق سبيل الشرف والمصلحة في حادث من الحوادث . وان ظهرا انهما متنافيان في النتائج القريبة المباشرة فهما غير متنافيين في نتائجها البعيدة بل ان الخسارة المادية الوقتية في سبيل الاحتفاظ بالشرف يعقبها ربح مادي كثير ينال تدريجاً وذلك يصدق على كل بلجيكي او صربي يحارب الآن عن بلادهِ او لهُ شأن في سياستها

لا انهى عن العمل على اطالة الحياة بقدر الامكان ولكن كل نفس ذائقة الموت ورغبة كل منا التي يعدها سعادة فوق كل سعادة هي ان يقدر على القيام بما يجب عليهِ وان يكون قد قام بهِ قبل موتهِ وبرهان ذلك سير جنودنا وبحارتنا . وقد قال قبطان طراد من طراداتنا في تقريرهِ عن احد البحارة « رأيتهُ لآخر مرة على مؤخر الطراد قائماً بما عليهِ خير قيام » واكثر الناس يطمحون الى ان يكونوا مثل هذا البحار وعقلاء كل امة يودون لها ان تكون مثلهُ ايضاً . واذا سلمنا بما تقدم رأينا ان الحرب ليست كلها شرًّا بل هي مأساة فيها الفواجع وفيها مجالي الشرف والفخر . على ان هذا الموضوع باب المذهبان فيهِ واسع خصوصاً لمن كان ضعيف القوة الخيالية . علينا ان لا نندفع في مدح الحرب ناسين ما يقاسيهِ فيها الانسان والحيوان من الويلات وما تثيرهُ في اخلاق الناس فكم قريحة لطيفة تغلظ في الحرب وكم شخص طيب الاخلاق يثبت وبصيرهُ الغضب والخوف شيطاناً لا يرحم . فاذا تحققنا كل ذلك وضح عندنا جلياً ان نبصر رياض الخير في قفار الشر

وقد يتبادر الى الذهن ان جميع الجنود المشتركين الآن في الحرب وهي جريمة عمومية عظيمة يسقطون في آدابهم دون متوسط الناس وذلك غير صحيح كما يتضح من رسائل الجنود ويومياتهم التي يرسلونها الى اهلهم من ساحة القتال فان هذه الرسائل واليوميات تدل على ان اخلاق كاتبيها لم تحط بل ارتفعت . ثم ان الرسائل تراقب فيجب منها ما كان غير مرغوب فيهِ والجنود انفسهم لا يكتبون الاَّ ما يرضون في ان يؤثر عنهم ويسكتون عن سواهُ ولكن اذا اعتبرنا ذلك كلهُ وقرأنا تلك الرسائل لم يسعنا الاَّ ان نحب ونستعظم الرجال الذين

يأتي ذكرهم فيها وهم من عامة الناس الذين نلتقي بهم في كل شارع كل آن ولم ينتخبوا لخصائص امتازوا بها على غيرهم . دُعوا الى الحرب ومهمتهم فيها وحشية في نفسها ولكنهم يأتون كل يوم فيها باعمال مجيدة حميدة لم يتح لاكثرنا ولن يتاح لهم ان يقوموا بمثلها . لا اعني بهذه الاعمال الاعمال التي يكافأ من يقوم بها بصليب فكتوريا او صليب فريق الشرف بل الجلد والصبر والطاعة والارتياح الى الايثار على النفس واحتقار من يحاول تخليص نفسه بهلاك غيره وعد فعلهِ جريمة تنتفر في جنبها جميع الجرائم . اعني اعمال الجنود الذين يقاسمون الفلاحين الجائعين آخر كسرة تبقى لهم من زادهم ويحملون رفاقهم الجرحى اياماً وليالي راجعين بهم القهقرى او يخلصون اخوانهم مستقتلين . وقد رايت الجنود ذاهبين الى الحرب ووجوههم طافحة بشراً ورايت الجرحى عائدين منها والبشاشة بادية على وجوههم . وقد قال احد المكاتبين من ساحة الحرب « منذ وصولي الى فرنسا لم ارَ علامات الغضب في وجه جندي ولا سمعتها في كلامهِ . فالجنود مطمئنون مطيعون ذوو بشاشة تقضي بالعجب » اما شجاعتهم فلا حاجة الى وصفها لمن تتبع اخبار الحرب . ولا يتصورنّ القارئ اني نسيت مصرع الالوف من الجنود مجندلين في العراء وانين الجرحى بين قصف المدافع المستمر . هذا لا انكرهُ ولكن يرافقهُ سرور عجيب في مواقع القتال . وقد قال ضابط روسي « ان الجندي ليحس بارتياح غريب وهو بين تغالب الموت والرصاص يصفر حولهُ ويتوق الجرحى ان يبرأوا ليعودوا الى القتال ويقاتلون ودموع الفرح تهمي من عيونهم »

ما اغرب الانسان وما اغرب طبيعتهُ فانهُ قد يجد سرّاءهُ وضراءهُ في غير مظانهما . ومن اصعب الامور ان يكون على الانسان ان يتم امراً معروفاً ليس فوق طوقهِ ولو اقتضى اقامةُ المخاطرة بالحياة بعد بذل الجهد . ومثل هذه السعادة يشرئب اليها عامة الناس كما يشرئب اليها الاولياء والابطال وقد يستطيع مَن اوتي حظاً وافراً من الحكمة وقوة التخيل الحصول على هذه السعادة في الاحوال العادية اما في الحرب فالحصول عليها ميسور لاي كان . هذه السعادة هي الفوز العظيم الحاصل عن العذاب الاليم